ستيفان زفايج

ورسالته الإنسانية الكبرى

روّعت أوربا عام ١٩١٤ بقيام الحرب الكبرى التى شُبّت نارها على حين فجأة ، فطوقت البطاح والوهاد ، والتهمت ماصادفت من إنسان وحيوان ، ومن دور ونبات . تعكر جو أوربا الصافى وا كفهرت سماؤه ، فأخذت النفوس الهادئة الوادعة تنفعل وتضطرم ، والأعصاب تتوتر وتتهدج ، وطاش الصواب وطاحت الحماقة بالحكمة . وطفقت الجماهير تتجمع فى كل مكان ، وتصج وتصخب ، فيفقدها الضجيج والصخب وعيها ، وتنقلب إلى قطيع من البهم المفترسة ، تردد فى غير إدراك تلك الصيحة الطائشة الفاجعة « إلى الحرب . . . إلى القتال » .

امّحت الحكمة حتى كأن الأمم لم تعرفها فى يوم من الأيام ، ولم تمجّ أساليب العنف ، ولم تستنكر وسائل القوة والبطش ، ولم تؤمن بالخير وتعتز بحضارتها الحديثة التى جادت بها أصفى القرائح وأسمى المشاعر . . . لقد غاض العقل الراجح ، وجمدت المشاعر السامية . وعند ما رددت الحناجر الدعاء إلى الحرب أشبه صداها نعيق البوم

فى وسط هذا العباب الطافح بالأحقاد وقف ستيفان زفايج يرقب ما يجرى حوله بعين الحسرة المريرة ؛ فإن جنون الحرب لم يستطع أن يؤثر فى نفسه الشاعرة . ذلك الجنون الذى سرت عدواه من الأمم المحاربة إلى الأمم المحايدة ، فانقسم العالم إلى معسكرين متخاصمين ، ينصر كل معسكر منهما أحد الفريقين المتناحرين بما يمده به من أدوات التخريب والتدمير ، أو بالدعاية المسمومة ، حتى فاضت نفوس البشر بالحقد والمقت ، ولم تعد له متعة إلا فيما كانت تطالعه من أنباء الفجائع التى عصفت ببنى الإنسان .

ولكن نفس زفايج كانت ، كما قلنا ، مطعمة بأسمى الخوالج الإنسانية ، فثبتت

لتيار الأهواء الطائشة ، ولم تتردّ فى مهاويها . بل إن تعوره من الشرور التى استفحلت واستشرت أشعره بالمهمة الكبرى الملقاة على عاتقه . أدرك أنه صاحب رسالة جُلّى عليه أن يؤديها ؛ فهو الشاعر الألمعى الذى درج على أن يبث أجمل أحاسيسه فى قلوب الناس ، وأن يحدوهم إلى غايات الخير والعدل والجمال . والساعة الرهيبة التى تجتازها البشرية تتطلب منه أن يبذل قصاراه ليبشر برسالة الحب والسلام ، وليفيض على العالم ما يكتنزه قلبه الكبير من عطف ورحمة .

آمن بعظم المهمة التى آلى على نفسه أن يضطلع بها ، وهبطت عليه المعانى والمشاعر كأنها إلهام منزل ، وفطن إلى وجه الشبه بين رسالته وبين رسائل الأنبياء ، فجرّد فاه الصغير السن ، الخطير الشأن ... جرده ليحطم بسنه الصغير السيوف الفاتكة ، ويخترق الدروع السميكة ، ويزلزل حصون الشر والضلال .

ولكنه لم يغب عنه وهو يهم بتدبيج رسالته أن الأنبياء لم يوفقوا فى بث تعاليمهم ، وتوطيد العقائد التى بشروا بها باعتمادهم على القدرة السماوية ، وأن الأمم لا ترعوى عن غيها ولا تهتدى إلا بهدى السماء . ولما كان أوان التنزيل قد مضى وانقضى فقد ارتأى أن يستعين بأحد الأنبياء الأقدمين فيبعثه من جديد فى ملحمة شعرية ، ويجرى على لسانه ما يشاء أن يجريه . ولم يجد من هو أقمن من إرميا ، نبى السلام ، بتحقيق هذه الغاية .

كتب زفايج قصة إرميا ، وصور فجائع الحرب التى وقعت فى عصر ذلك النبىّ . ولما كان التاريخ يعيد نفسه ، فقد جاءت القصة صورة مطابقة لعصر كاتبنا الفذ فى شروره وآثامه . ولما كان إيمانه بالخير كإيمان ذلك النبى ، وتعلقه بالسلام كتعلقه ، وتجرده الروحى وسمو شعوره هيأه لتلقى الوحى ، فقد استحال إرميا فى القصة الحديثة إلى زفايج نفسه .

لما تجمعت الجيوش الجرارة إبان الحرب الكبرى ، وسارت إلى ميادين القتال وهى تضرب فى الأرض بأقدامها ، لم ينخدع زفايج كغيره من الناس فى مظاهر الفتوة البادية على الجنود الأشداء ، ولم تبهره سيوفهم المشهورة اللامعة ، ولم يفتنه نظامهم الحربى الرائع ، ولم تتهدج أعصابه حماسة لأهازيج موسيقاهم العسكرية ، إذ كانت نظرته أبعد من ذلك مدى ، وأدق تمحيصا ، فنفذت من

حجب الغيب ، وسبقت الزمن ، ورأتهم وهم عائدون من غمار القتال فلولاً هائمة على وجوهها عفرها التراب ، ونهكها التعب ، وخنت ظهورها الذلة وخيبة الأمل . وفى هذا يقول على لسان إرميا :

« شفّت المرارة نفسى ، فطفرت الكلمات إلى فمى . . . نبئونى بالله يا إخوتى أبلغت الحرب من النفاسة مبلغا يدعونا إلى الترنم بمديحها ، والإشادة بالائها ؟ أهى مستطابة إلى الحد الذى يسوّغ تهافتكم عليها ؟ أهى كريمة فتستحق منكم هذه التحية المنبعثة من سويداء قلوبكم ؟ . . . أما أنا فأسجل عليها أنها ضارية كالحة الأديم . فهى تفرى جلود الأصحاء وتمتص نخاع الأشداء ، وتطحن المدن بين فكيها ، وتمحق الحقول بوطء نعليها . ومن يثرها يعجز من بعد عن قمعها . ومن يستل السيف يمت بحد السيف . . . ويل لأولئك السفهاء الذين يوقظون الفتنة بكلمة تخرج من أفواههم ، فإذا سلك هؤلاء طريقهم إلى القتال ، عادوا أدراجهم لدى فرارهم من سبع طرق . . . الويل لأولئك الذين يكتمون أنفاس السلام . احذروا هؤلاء . . . احذروهم . . . »

ساد أوربا فى أواخر القرن التاسع عشر اعتقاد بأن الحروب قد انقضى عهدها ورقّقت الرفاهية شعور الشعوب التى غرقت فى بحبوحتها ، وأحدث ازدهار العلوم والفنون تأثيره ، فأيقن أبناء الحضارة الحديثة بأنهم سائرون بخطى واسعة صوب المثل الأعلى الذى بشرهم به المتفائلون من أئمة كتّاب القرون الثلاثة الأخيرة . وما طلع سبنسر على العالم المتحضر بفلسفته حتى قوبل من أبناء القرن التاسع عشر بلا استهجان ؛ فقد رأى على ضوء بحوث داروين أن الإنسان لم يخلق من طينة تختلف عن طينة غيره من أنواع الحيوان ، وأنه خاضع لقانون الغاب ، قانون السيطرة للقاهر الغلاب ، ولا يخطو فى وشائج هذه الحياة خطوة إلا وهو مدفوع بحكم تنازع البقاء . ولم يلبث مقتنعو هذا المذهب أن طنطنوا به ، وأهابوا بالناس أن يفيقوا من خوادع الأوهام ، وأن ينزلوا إلى دنيا الحقائق ، ويجابهوا مشكلاتهم على أساس الواقع .

وما هلّ القرن العشرون حتى ازدادت العلوم ازدهارا ، وتعددت المخترعات التى بهرت الألباب ، ورسخت العقيدة بأن الإنسان سيد هذا الكون ، فهو قاهر الطبيعة ومسخر عناصرها لتحقيق غاياته ، والمهيمن على مصادرها

وموارده . وبدأ المستقبل باهرا ، حتى خيل للعالم المتحضر أنه يرى خلاله غايته المنشودة ، وهى الكمال .

وازدادت الزراية بنظرية سبنسر ومؤيديه على مر الأيام ، وامتعض راكب السيارة والمستمع إلى الحاكى ، والمستضىء بالكهرباء من أن يحشدوا فى زمرة الحيوان . ولكن حدث فى عام ١٩١٤ أن انقلب هؤلاء السادة بالفعل إلى ضوار كاسرة كشّرت عن أنيابها ، واقتحمت ساحات الوغى مزمجرة ، ونهشت لحوم بنى جلدتها من البشر ، واستماتت فى ميدان هى قاتلة فيه أو مقتولة . وهكذا حققت الأيام ما ذهب إليه سبنسر وهاكسلى وهايكل وأضرابهم ، وأيد أبناء الحضارة الحديثة فلسفة هؤلاء بأساليب لا تختلف عن أساليب الوحوش بعد أن شبعوا منها سخرية .

وأظهرت كثرة الكتاب يأسها من البشرية التى نكصت على أعقابها بعد أن خيل للمتفائلين أنها سائرة قدماً فى سبيل أوج الحضارة ، وتعالى نداؤهم بتوديع الأحلام الذهبية والتسليم بالواقع . ولا غرو فى أن تودع البشرية آمالها بعد أن كثرت الدعاية لمذهب تنازع البقاء ، وبعد أن جاءت الحرب الكبرى داعمة لهذا المذهب الخطير .

ولكن فريقا من الكتّاب ذوى النفوس العامرة بالإيمان أبى أن يكفر بالخير ، وأن يسلم بأن للغرائز البهيمية الغلبة فى النهاية على الفضائل الإنسانية ، ولم ير فى الحرب الكبرى إلا حلقة من سلسلة الحروب السابقة التى لم تنشب إلا لحكمة سماوية .

رأى هذا الفريق ، وعلى رأسه زفايج ، أن القدرة الصمدية الخارقة لم ترد بالإنسانية إلا خيرا ، ولكن النقيض لا يعرف إلا بنقيضه ، ولا يظهر الضد إلا الضد ، ولا سبيل إلى الخير العميم الشامل إلا بعد أن تبلو الإنسانية ألوان الشرور جيلاً بعد جيل ، وبعد أن تنصهر فى بوتقة المكاره والآلام ، فتخلص من علالها ، وتنفر بعد ذلك من شرورها وآثامها نفورا لا رجعة بعده إليها ، وترقى بعد أن تتطهر من أثرتها الفانية إلى الخلود .

حرص زفايج على بث هذه العقيدة فى آيات القصة التى نتناولها فى هذا العرض ، فكرر القول فى أكثر من موضع منها بأن سبيل الخير هى فى تجرد الإنسان من صلفه وكبريائه ، وبأن الله قدم البلاء

لتستساغ من بعده النعم والآلاء . وفيما يلى نتف مما كتبه فى هذا الصدد .

قال إرميا يخاطب المولى :

طهرتنا بالخير ثم رفعتنا . . . من بعد أن جمحت بنا الأوزار
وبثثت فينا جذوة الحب الذى دار الوجود عليه حيث يدار
لما أردت الخير قدّمت الأذى ليشوقنا بعد العناء يسار
فبدت لنا نعم الحياة جزيلة من بعد ما عصفت بنا الأقدار

وقال أيضاً :

لست أشقى إلا لينعم غيرى بشقائى فى كل عصر وجيل
ويدول العهد المقيت ويزهو عهد حب من بعده مأمول
إن فى موتى المبكر يا قو م حياة للعالم المخذول

وقال كذلك يخاطب المولى :

لك أجثو يا إلهى خافض الرأس خشوعا
أضرم النار وقطّب واعمر الأرض نجيعا
وانبذ الشعب الذى اختر ت فرادى وجموعا
كلما أبعدتنا أر جعنا الحب رجوعا
كلما عذبتنا ازدد نا ولاء وخضوعا

لا غرابة فى أن يطلع علينا علماء التاريخ الطبيعى بنظرية تنازع البقاء ، وفى أن تتأسس هذه النظرية لا على أن الإنسان نظير الحيوان فى غرائزه فحسب ، بل على أن كل إنسان يشبه نوعاً من الحيوان فى صورته كذلك ، ويخضع الجميع لقانون طبيعىّ واحد . ذلك لأن أولئك العلماء توفروا على دراسة الحيوان ومراقبة التطور الطبيعى الذى يطرأ عليه ، وتسجيل طباعه وعاداته . وهذه الممارسة الدقيقة ، وهذا الإدمان الطويل مما يزيغ البصر ويضل الحواس . فلا يلبث الممارس المدقق الذى انحصر فكره وحسه فى دائرة بحثه أن يتأثر حكمه على الأشياء الخارجة عن هذا النطاق بما استقر فى وعيه من سوانح ونظريات

خاصة بذلك البحث ، وإذ به يرى الدنيا بمنظار هـذه السوانح والنظريات .

وإذا كفر علماء التاريخ الطبيعيّ بما تحلّى به الانسان من سجايا وخلال تؤهله لبلوغ المجد الذى يصبو إليه ، فمن مقتضيات الطباق أن يمج شاعر مثل زفايج بدعة هؤلاء ؛ لأن الشاعر الذى رق حسه وصفت نفسه ونفذ بصره إلى مواطن الجمال المادى والمعنوى فى عالمنا الأرضى ، وحلق فى سبحات الفكر الساميـة ، استطاع أن يرى أى بون شاسع يفرق بينه — وهو من بنى الإنسان — وبين سائر الحيوان . . . إن الشاعر الملهم هو الآية الإلـهية التى تدحض فرية أولئك العلماء ، وهو الذى يصوغ فى روائع شعره أغانى الخلود فتترنم الإنسانية بها وهى تخطو قدماً إلى مثلها الأعلى . وقد اضطلع زفايج بمهمة الشاعر الـكبير وصاغ قصة إرميا الشعرية ليحلق من يقرؤها فى أجواء الملائكة ، ويتبين وهو فى عليائه مبلغ ما فى رأى المتشككين فى سمو الإنسان من خطل .

تقع حوادث هذه القصة فى عصر قويت فيه شوكة آشور حتى صارت خطرا على جيرانها . ولم يَخْفَ على حكومة مصر أن الآشوريين وقد أنسوا من أنفسهم القوة يحلمون بالعيش فى ظل وادى النيل الممراع ، فأوفدت بعثات عسكرية إلى الدول المتاخمة لها بقصد الاتفاق معها على دفع الخطر الآشورى الداهم . وفى ذات يوم وصل بعض قواد الجيش المصرى إلى أورشليم لتحقيق الغرض المذكور ، فقابلهم الشعب بالهتاف والتهليل ، ورحب بتحالف الجارين على دفع أذى المعتدين . وبينما كانت حماسة الجماهير فى ذلك الحين على أشدها تصدى لها إرميا ، وحاول إقناع الهاتفين للحرب بأن فى دعوتهم إليها هلاكهم وخراب بلادهم ، وبأن سلام الله أولى بالدعوة إليه . ولـكن الحـكمة لا تجد سبيلا إلى لب من طاح بلبهم الطيش ، وكان نصيب ذلك الداعى إلى الخير أن رمى بأقبح الصفـات : رماه بعضهم بالجبن والخور وبخيانة الوطن ، ورماه بعضهم الآخر بفساد الرأى وقلة الإدراك . وعندما صارحهم بأن الله جل شأنه هو الذى بعثه إليهم ليحذرهم مغبة الحرب ويدعوهم إلى السلام ، وأن الوحى السماوى هبط عليه فى المنام ، رموه متهكمين بخبل العقل ، وبأنه مريض بداء الأوهام والأحلام .

وبينما كان المتظاهرون يضجون فى ساحة المدينة الكبرى داعين إلى امتشاق الحسام إذ بمليكهم صدقيا يخرج من قصره ، ويتجه على رأس البعثة العسكرية المصرية صوب المعبد ثابت الخطى شاهر السيف . ولكن صرخة مدوية تصدر فى اللحظة من أعماق قلب إرميا وتطبق الآفاق :

— يا صدقيا . . . أغمد سيفك . . .

يتوقف الملك ماخوذا برهبة ذلك الصوت ، ويرتجف السيف فى يده . وتتخاذل يمينه وتتساقط ، ويتلفت ليتبين مصدر ذلك الصوت . ولكن صيحات الشعب الغاضب تجلجل فى هذه الأثناء ، وتعم الأرجاء فتغمر صوت إرميا . ولا تلبث حماسة الشعب أن تدب فى أوصال الملك من جديد ، فيشهر سيفه كما كان ، ويعود إلى مشيته الأولى صارم الوجه ثابت الخطى .

تقع الحرب ، وتروج اشاعات بانتصار المصريين على الآشوريين ، فينتشى شعب أورشليم زهوا وطربا ، ويوسع إرميا سخرية وتنديدا . ولكن النبى يصرخ فى الساخرين المنددين قائلا :

— الرسول فى طريقه الآن .

وما هى إلا هنيهة حتى يبدو من وراء سور المدينة الرسول الذى رآه إرميا وهو لا يزال فى حجاب الغيب . أقبل ذلك الفارس ينهب جواده الأرض ، وأعلن للشعب المتكأكئ حوله الحقيقة سافرة بالغة من السوء مبلغا تنقلب معه العجرفة والصلف إلى ذلة ومسكنة . فالجيش الآشورى قد تغلب على جيش مصر ، وانكشف طريق أورشليم أمام بختنصر .

سقطت مدن فلسطين فى أيدى العدو مدينة بعد مدينة ، ورأى شعب أورشليم من فوق أسواره أعمدة اللهب تتصاعد فى ظلمة الليل من تلك المدن ، فيتوقع حتفه الزاحف إليه ، وينتظر انقضاضه مرتعد الفرائص وجلا ، ولم تلبث الحرب التى دعا إليها أن صبت ويلاتها عليه . ففى ذات ليلة سمع هديرا كهدير البحر يتصاعد من الصحراء المترامية وراء أسواره ، فأدرك أن ملك الظلام قد أقبل بجحفله الجرار ، وحاصر مدينته العزيزة عليه .

تقع مقابلة فى هذه الآونة العصيبة بين صدقيا الملك وبين إرميا النبى . ويفطن أولهما إلى أن الثانى هو الذى أهاب بالسلام فى ساحة المعبد يوم دعا الكافة إلى الحرب ، فيقول له :

— لم تحاشيتنى ؟ . . . لم تخليت عنى ؟

فيجيب إرميا :

— إنى لم أبعد عنك لحظة ، ولكنك لم تفطن لوجودى . أنت لم تهتد إلىّ .

— كم من أمور تنبأت بها يا إرميا فحققت الأيام جميع نبوءاتك ، حتى صار لحكمك تأثير بعيد المدى من نفسى . ولهذا سأطلعك على سر يجهله الجميع لتدلى برأيك فيه . بعث إلىّ بختنصر برسول يعرض الصلح .

— لله الحمد . . . افتح لهم الأبواب ، افتحها . . . وافتح أبواب قلبك .

— لا تتعجل . . . إن شروط العدو قاسية .

— أنت بادرته بالصلف والكبر ، فاحتمل كبره وصلفه .

— أليس صون الشرف من مهام الملك ومن مفاخر التاج ؟

— لا تكن حريصا على ما ملكت يداك . . . فما أجل الشرف الذى يفوز به من يحتمل العذاب فى سبيل الكافة ، ويشق لينقذ المتعلقين بأهداب الحياة . . . طأطئ هامتك فلا نجاة إلا فى خضوعك . . .

يأبى صدقيا أن ينصاع لنصيحة إرميا ، فيثور هذا الأخير ويتهم مليكه بأنه عرض بلاده برعونته للدمار ، ودفع بشعبه إلى الهلاك . فيغضب المليك وينذر ويتوعد ، فيجيبه النبى :

سوف يلقى بك العداة إلى الأر ... ض فتجثو قسراً على ركبتيكا
ويمس الثرى جبينك حتى ... يغمر الترب صفحتى خديكا
اللظى فى الأتون يهدر كالوح ... ش وينزو منه اللهيب إليكا
فيه نصل يحمونه تحت عينيـ ... ـك لمحو الضياء من عينيكا
فاذا ابيض بعد حمرته النصـ ... ـل هوت طعنة العداة عليكا
تدفن النصل بين عينيك حتى ... يتعالى الدخان من محجريكا
ما يزالون طيلة الليل يحمو ... ن لظاهم ليسملوا مقلتيكا

يتراجع صدقيا مرتاعا ، ويمد يديه كأنه يدفع عنه القدر ، ولكن إرميا لا يباليه ، ويتم نبوءته الرهيبة :

قبـل أن يطفىء العدا منـك نور النواظر
سوف تَبْلَى بمحنـة في بنيـك الأصاغر
ستـراهم ثـلاثة في مهب المقـادر
جاء جـلادهم إليـهم مخوف البـوادر
أنت عن دفع ما قضى فيهـم غـير قادر
قيـد القوم ساعديـك فزمجـر وهاتر
كل ما تملك الصيا ح وشـق المـرائر
ثم تهـوى رموسهم صاغراً بعـد كابر

صدقيا

رحمة بي يا إرميا رحمة بي

إرميا

ستنادى كما تنـادى الآنا
راجياً من إلهك العفو عمـا قارفتـه يداك والغـمرانا
يا أعز المـلوك جاهاً ستمسى مدقع الفقر يائساً حـيرانا
باسـطاً للسؤال كفيك منبو ذاً من النـاس جائعاً عريانا
هائماً كالغريب في بلد كنـ ت عليه فيما مضى سـلطانا
لا يباليك من لقيت من الرو (م) اد أو من سـألتهم إحسانا
جهلوا أمر ذلك السائل العا ني ولم يعرفوا المليـك المهانا
فإذا ميزوك صبـوا على رأ سك من جام حقـدهم ألوانا

يملأ الفزع قلب صدقيا ، ويترنح كالأعمى ، ويتساقط على مقعده وقد ضعضعته شخصية إرميا الغلابة ، ثم يناشد هذا الأخير متضرعاً أن يرحمه ، فيجيبه بأنه قادر على التنبؤ بسر الأقدار ، ولـكنه غير قادر على دفع عوائلها .

تفلت الفرصة من يد صدقيا لأن رسول بختنصر عاد أدراجه ، قبل ذلك اللقاء الذي وصفنا تفصيله ، يحمل إلى ملك الظلام رفض اقتراح الصلح . ويصور زفايج آخرة صدقيا الذي أقحم شعبه في حرب سحقته بين شقيها . فقد كبله العدو بعد اقتحام أورشليم بالأغلال ، وقاده إلى الساحة الـكبرى ، وضرب الجلاد عنق

أولاده الثلاثة على مشهد منه ، ثم أطفأ نور عينيه . . . وهكذا تحققت نبوءة إرميا بحذافيرها .

ويتخذ زفايج من هذا الملك التاعس فى آخر قصته عظة لكل متكبر صلف . فنراه يخرج من باب قصره كفيف البصر ، محاطا بأمراء كلدية السكارى الذين اتخذوه أداة للهو والمفاكهة ، فأخذوا يتقاذفونه وهو يترنح ويكاد يسقط بين كل خطوة وأخرى . ثم تعالت أصواتهم الساخرة منادية :

— يا قاهر بابل . . . قف وناهض بختصر .

— لا تسقط على الأرض فأنت عماد أورشليم .

— لم لا ترقص لنا رقصة داود ؟

— دعوه يشرب ظلمة الليل ، ولنعد نحن لنشرب السلاف الصافية .

يبتعد الملك الطريد عن قصره متعثرا مادّا يديه فى الفضاء حتى يقبل على شعبه المتهيّئ للرحيل الى منفاه ، فيقابل بعاصفة من السخط والاستنكار ، ويرمى بأنه كان السبب فيما حل ببلده من أرزاء

وبينما الهم يقطع نياط قلب الشيخ الأعمى الدليل ، إذ يقبل عليه إرميا مشفقاً ، ويأخذ بيده ، ويخاطبه بصوت يسمعه الملأ :

— لقد أمسيت ملك الآلام ، ولم يبلغ مُلكك فى يوم من الأيام مثل الذروة التى سما إليها اليوم . كنت أناهضك يا سيدى حين ازدهار جاهك ، واكتمال سلطانك ، ولكننى أنحنى اليوم أمام من حناه ربه .

ثم يلتفت إلى الحشد ويستطرد قوله :

أغمض الله له عينيه حتى ... لا يرى إلا أتانيم السماء
غضّ جفنيه فدارت مقلتاه ... فى امتداد الأفق الضاحى السناء
سخرت جمهرة الجهال منه ... وهو مولى الأشقياء السعداء
عاهل المستضعفين الشهداء .

والشخصية الأخرى التى نفث فيها زفايج الحياة فى قصته ، وسخرها كذلك لتبيان مقصده ، هى أم إرميا . اعترضت هذه الأم سبيل ابنها ، ونددت بالدعوة للقدسية التى آلى على نفسه أن ينشرها بين الناس ، وانضمت إلى زمرة

الساخطين عليه ، وحرمت عليه دخول دارها حتى يرعوى ويؤمن بأن شعب الله المختار لا يقهره قاهر ، وبأن معبد الله فوق متناول التخريب . ويحاول النبي أن يقنعها بقدسية رسالته ، فتزداد عليه سخطا وتكيل له اللعنات . فيغادر دارها ثابت الجأش بعد أن يصارحها بأنه وطّن نفسه على تأدية رسالته مهما قام فى سبيلها من عقبات ، وبأنه يستعذب فى تلك السبيل كل تضحية حتى لو كان حب أمه له وعطفها عليه مما يضحى به . ذلك لأن الكلمات التى تخرج من فمه هى كلمات الله ، وهو لا يملك إلا الشفة التى تنطق بها .

تشعر الأم بعد هجران ابنها لها بوحشة لا قبل لها باحتمالها ، ويبرّح بها همٌّ مقيم لا يلبث أن يسلمها الى مرض عضال . وسرعان ما تستغرق فى غيبوبة طويلة لا يقطع سكونها إلا أحلام مفزعة تمثل لها انها معرضا عنها ، نافرا منها . ويخشى خادمها الأمين أشعب على حياتها ، ولا يرى وسيلة لتخفيف وطأة مرضها إلا أن يستقدم ابنها . فأرسل فى أثره من يبحث عنه ويعود به إليها ، وكانت الهزيمة قد حاقت أثناء مرضها بأمتها ، ولكنها لم تعلم من أمرها شيئاً .

وقف إرميا بباب غرفة أمه ، فسارع إليه أشعب ، ونبهه إلى جهل المريضة بالمحنة التى حلت بأورشليم ، وأوصاه بألا يلمح إليها بكلمة عنها إبقاء على حياتها . ونظر الولد إلى أمه المستلقية على فراشها ولم يجرؤ على التقدم . ففتحت جفنيها ، ونصّت فى فراشها ، ونادت وحيدها بصوت يتهدج ضعفاً وحناناً ، ولم يلبث الحائر المتردد أن أسرع إليها وارتمى فى أحضانها ، ودار بينهما حوار طويل فاض بالعتب الرقيق ، وبالحب والعطف المتبادل بينهما . وعرجت الأم على نبوءة ابنها فقالت :

أنا آمنت بالحقـــائق لم أء دل بهـا خادعا من الاوهام
أنا لقنتك الحقـــائق هذى منذ عهـــد الطفولة البسام
لن ينال العـدو منا فإن الـ (م) ـــه راع لعـــابديه وحام

اكفهر وجه إرميا ، وانتفض جسده ، وردد فى ذهول :

لن ينال العـدو منا فان الـ (م) ـــه راع لعـابديه وحام !

وامتقع وجه الأم ، وسألته :

لم هذا الخوف المريب الفجائى ؟ لم هذا القنوط بعد الرجاء ؟

ازداد اضطراب إرميا ، وعجز عن أن يحير جواباً . فتوسل إليه الخادم أشعب أن يعيد إلى سيدته طمأنينتها :

قل لها قولا يسرّى بُرَحاء الهم عنها
بعد أن صار رداها دون قيد الرمح منها

وقالت سيدة من أقربائه كان المجلس يضمها :

موّه عليها الحقيقه وارفق بأم رفيقه

وحاول إرميا الكلام من جديد فلم يسعفه القول . وعاود أشعب إلحاحه :

بلفظة يا إرميا واحدة ترحمها

وقالت القريبه :

أيامها محدودة أبالأسى تختمها

فهمس إرميا متخاذلا :

لا استطيع ان أقو ل لفظة توهمها
يأبى علىّ أن أقو ل لفظتى ملهمها
قد مكّنت من عنقى وأوشكت تحطمها
يد لها قدرتها من الذى يفصمها ؟
يا رب أطلق قيدها فلست من يظلمها

وأدركت الأم الحقيقة فولولت :

الويل والدمار شبت بجسمى النار
وبلدى ومعبدى كلاهما ينهار
أودى بنا البوار وأظلم النهار ...

وسقطت على فراشها جثة هامدة .

هكذا يختتم زفايج حياة أم النبي . فهى لا تتبين مغبة وقوفها فى سبيل الدعوة إلى السلام حتى تموت حسرة وغما .

أما الزعماء والأنبياء الذين عملوا على إذكاء الحرب وأغروا الشعب بخوض غمارها ، فلم تلبث رحاها أن هشمت عظامهم ، وسحقت مشاشهم . وعملت ريشة الشاعر الفنان على تصوير مشاهد الدمار والهلاك اللذين حلا بأورشليم وأهلها . فأسوار المدينة مهدمة ، ومعبدها مخرب ، وطرقها ملوثة بالدماء الآدمية ، والجثث ملقاة على الأرض متحجرة معفرة ، شاخصة العيون ، فاغرة الأفواه ، مطبقة الأيدى على التراب .

يستهول إرميا هذا العقاب الصارم الذى أنزله الخالق بعباده ، وينخلع قلبه جزعا عليهم ، فتثور ثورته ، ويكاد إيمانه ببارئه يتزعزع . ولكن حكمة الخالق لا تلبث أن تتجلى له ناصعة ، فيثوب إلى رشده ، ويدب الإيمان إلى قلبه قويا عازما على مثل ما كان من قبل . ويشعر بأن عليه مهمة كبرى جديدة يجب أن يؤديها ، وهى أن يواسى الشعب المنكود ، ويعيد إليه ثقته وإيمانه .

يذهب إلى ساحة المعبد فيرى الملك صدقيا يتخبط فى الظلام على النحو الذى وصفناه سابقا ، ويبشر القوم بقرب انهزام بختنصر وزوال ملك آشور ، ويقول فيما يقول :

كل من جرد نصل السيف بالسيف هلك
أو أسال الدم سال الدم منه وانسفك
والذى عادى يعادى هكذا دار الفلك

يحدث هذا القول تأثيره المنشود ، فيواصل النبى وعظه :

« كأنى وأنا أخبر آلامكم يا إخوتى أطالع كتابا مفتوحا ، وتتكشف لى معانى السطور التى خطها الشقاء والعذاب . ولكنى أتبين فى نفس الوقت حكمة النوائب التى بليتم بها ، وأرى ذات البارئ تتجلى خلالها . . . وإذا عمر الإيمان قلوبكم ، بث الله فيكم الروح ، وبعثكم من جديد . لا تملأوا الدنيا

شكاية وولولة ، فنحن نشق فنستمد القوة من شقائنا ، ونكبو فننهض ثانية ونحن أثبت قدما وأقوى عزماً .»

ولا يزال إرميا بمستمعيه حتى تفور بين الشعب فورة حماسة جارفة ، وينتصر الروح انتصاره الخالد على قوة المعتدين المادية ، ويبشق الأمل فيبدد ظلمات اليأس . ويحين ميعاد رحيل المقهورين إلى منفاهم فى بابل فيغادرون بلدهم فى موكب وراء موكب ، ويرددون أثناء مسيرهم أناشيد زادت حماستهم تأججا حتى أخذ بعضهم يرقص من شدة الطرب .

يرقب زعماء كلدية هذه المواكب المنشدة الراقصة فيتملكهم العجب ، ويسأل أحدهم :

— أى شعب هذا ؟ أليس هو الشعب المهزوم !

ويعقب آخر :

— بم يترنم ؟ . . . ياله من شعب عجيب !

فيجيب ثالث :

— هناك سر يبدلهم من حال إلى حال . هناك قوة خفية تملؤهم نشوة . إنهم يؤمنون بعالم غير منظور .

ويسأله الأول متعجبا :

— وكيف يؤمنون بما لا يرون ؟ لابد من أن نتعلم عنهم هذا السر الغريب .

إننا نستطيع إبادة الرجال ، ولكننا لا نستطيع إبادة الروح الكامن فيهم .

بهذه العبارة تنتهى قصة زفايج الخالدة . ولكننى لا أستطيع أن أنهى كذلك هذه العجالة حتى أعرض لمشهد استوقف نظرى من أحد الفصول الأولى لتلك القصة .

قلنا فيما تقدم إن الشعب كان يهتف للبعثة العسكرية المصرية فى ساحة أورشليم الكبرى ، ويدعو إلى امتشاق الحسام ، وخوض غمار الحرب . وقد وقع قبل أن تصل مظاهرة الشعب إلى تلك الساحة أن اعترض إرميا سبيل المتظاهرين وحاول إقناعهم بالعدول عن دعوتهم الطائشة والتمسك باهداب السلام ، وطفق يندد بجالبة الشرور ومخربة الديار ، ويعدد آلاء السلم ونعم

الوئام ، ولكنه قوبل بغضب صاخب . وخر له من بين صفوف الحشد شاب ترتجف أعصابه حماسة ، وطلب إليه فى لهجة الآمر أن يتنحى عن طريق المظاهرة . فلم يكن من إرميا إلا أن هتف فى وجهه للسلام ، فهدده الفتى بضرب عنقه بحد سيفه ، فظل النبىّ ثابتاً فى مكانه ، باسطا ذراعيه ، مناشدا المتظاهرين بأعلى صوته أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويرجعوا عن الغرض الذى قصدوا إليه

يهوى الفتى عندئذ بسيفه على إرميا فيصيبه فى جبهته ، ويغادره ملقى على الأرض متخبطا فى دمه ، ويسير مع الجماهير إلى ساحة القصر الملكى . ولكنه سرعان ما يتوقف ، ويدفعه دافع من نفسه إلى استطلاع أمر ذلك الرجل الذى اعتدى عليه . فيعود أدراجه بطئ الخطى ، مزاحما تيار المتظاهرين . ولا يصل إلى حيث يرقد إرميا حتى ينحنى عليه ويقول :

— لا تتحرك . دعنى أجفف الدم المتدفق على عينيك .

يفتح إرميا جفنيه ويسأل فى لهفة :

— أين ؟ . . . أين الناس ! . . . الطريق مقفر . . . آه . لقد ذهبوا إلى القصر ينعقون ويستنزلون غضب السماء . . . إحملنى إليهم . . .

فيتعجب الفتى ويجيب :

— اترغب فى محاولة أخرى تناهض بها الكافة وحدك ؟ أنت تلقى بنفسك إلى التهلكة .

وينادبه إرميا :

— أمسك بى . . . أعنى على النهوض . . . سر بى إليهم .

ويقول الفتى وقد ازداد عجبه :

— وأنا الذى حسبك جبانا ! . . . أنا لم أناهضك إلا وأنا واقع تحت تأثير هذا الحسبان الخاطئ !

— ألا تظن السعى فى سبيل السلام كفاحا ؟ إنه يتطلب جلداً وبأساً قد لا يتطلبهما القتال . إن الذين ينشدون السلام يخوضون حرباً لا يخمد لها أوار .

— إنى أومن بك لأنى رأيت صفاء عينيك وهدوءهما على بريق سيفى المصلت .

— كيف تؤمن بى ، وقد طعنتنى وأنت تناهضنى منذ برهة ؟
— أومن بك لأنى رأيت دمك المسفوك يؤيد دعواك .

كتب زفايج هذه القصة وسط أتون الحرب الأوربية الكبرى . وما وضعت تلك الحرب أوزارها ، ونشر شاعرنا الكبير مؤلفه بين الناس حتى اطمأنت نفسه ، حاسباً أن عهد الحروب قد مضى بغير رجعة ، وأن دعوته السامية المنبعثة من سويداء قلبه ستجد السبيل إلى كل قلب .

ولكن الأيام بددت حلمه الجميل ، واشتعلت نار الحرب العالمية الأخيرة ورأى أن دعوته إلى السلام لم تكن من القوة بحيث تحول دون وقوع الحرب ، فأراد أن يثبتها ويدعمها بدمه المسفوك فأزهق روحه . وهكذا وضح أن ما سطره فى قصته لم يكن مجرد بديع وبيان ، بل كان أصدق تعبير عن أشرف عقيدة آلى على نفسه أن يبذل فى سبيلها أثمن ما يملك ؛ وقد بذل حتى نفسه فى تلك السبيل .

محمد مغير الشربلشى